بسم الله الرحمن الرحيم

٤٩ — سورة الحجرات

قال المهايميّ: سميت بها لدلالة آيتها على سلب إنسانية من لا يعظم رسول الله غاية التعظيم، ولا يحترمه غاية الاحترام. وهو من أعظم مقاصد القرآن.

وهي مدنية، وآيها ثمان عشرة.

وقد انفردت هـذه السورة بآداب جليلة، أدّب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به نبيّه ﷺ، من التوقير والتبجيل.

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ، وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ » قال ابن جرير[1]: أى يا أيها الذين أقرّوا بوحدانية الله ، ونبوّة نبيّه ﷺ ، لا تعجلوا بقضاء أمر فى حروبكم أو دينكم ، قبل أن يقضىَ الله لكم فيه ورسوله ، فتقضوا بخلاف أمر الله ، وأمر رسوله . محكىّ عن العرب : فلان يقدم بين يدى إمامه ، بمعنى يعجل الأمر والنهى دونه . انتهى .

و (تُقَدِّمُواْ) إما متعد حذف مفعوله ، لأنه أريد به العموم ، أو أنه نزل منزلة اللازم لعدم القصد إلى المفعول ، كما تقول : فلان يعطى ويمنع . أو هو لازم ، فإن (قدم) يرد بمعنى (تقدم) كبيّن ، فإنه متعد ، ويكون لازماً بمعنى تبيّن .

وفى هذه الجملة تجوّزان :

أحدهما ـ فى (بين اليدين) ، فإن حقيقته ما بين العضوين ، فتجوز بهما عن الجهتين المقابلتين لليمين والشمال ، قريباً منه بإطلاق اليدين على ما يجاورهما ويحاذيهما . فهو من المجاز المرسل ، ثم استعيرت الجملة استعارة تمثيلية للقطع بالحكم بلا اقتداء ، ومتابعة لمن يلزم متابعته ، تصويراً لهجنته وشناعته ، بصورة المحسوس ، كتقدم الخادم بين يدى سيده فى مسيره ، فنقلت العبارة الأولى ، بما فيها من المجاز ، إلى ما ذكر ، على ما عرف فى أمثاله ـ هذا محصل ما فى (الكشاف) و (شروحه) .

(١) انظر الصفحة رقم ١١٦ من الجزء السادس والعشرين .

قال ابن كثير : معنى الآية : لا تسرعوا فى الأشياء قبله ، بل كونوا تبعاً له فى جميع الأمور ، حتى يدخل فى عموم هذا الأدب حديث معاذ رضى الله عنه . قال له النبىّ ﷺ حين بعثه إلى اليمن : بم تحكم؟ قال: بكتاب الله تعالى. قال ﷺ : فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ﷺ : فإن لم تجد ؟ قال رضى الله عنه : أجتهد رأيى ! فضرب فى صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضى رسول الله . وقد رواه أحمد(١) وأبو داود(٢) والترمذىّ(٣) وابن ماجة(٤) . والغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل البحث عنهما ، لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله . انتهى .

وقد جوز أن يكون المراد (بين يدى رسول الله) وذكر (الله) لبيان قوة اختصاصه به تعالى ، ومنزلته منه ، تمهيداً وتوطئة لما بعده . وقد أيد هـذا ، بأن مساق الكلام لإجلاله صلى الله عليه وسلم .

تنبيه :

قال ابن جرير : بضم التاء من قوله (لَا تُقَدِّمُوا) قرأ قراءة الأمصار ، وهى القراءة التى لا أستجيز القراءة بخلافها، لإجماع الحجة من القراء عليها. وقد حكى عن العرب : قدّمت فى كذا وتقدمت فى كذا . فعلى هذه اللغة لو كان قيل (لا تقدموا) بفتح التاء ، كان جائزاً. انتهى . وبه قرأ يعقوب فيما نقل عنه .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٣٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه فى : ٢٣ ـ كتاب الأقضية ، ١١ ـ باب اجتهاد الرأى فى القضاء ، حديث رقم ٣٥٩٢

(٣) أخرجه فى : ١٣ ـ كتاب الأحكام ، ٣ ـ باب حدثنا هناد ، حديث رقم ١٣٢٧

(٤) لم يخرجه ابن ماجه .

« وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ » أى فى التقديم أو مخالفة الحكم . والأمر بالتقوى على أثر ماتقدم ، بمنزلة قولك للمقارف بعض الرذائل : لاتفعل هذا ، وتحفظ مما يلصق العار بك. فتنهاه أولًا عن عين ماقارفه، ثم تعمّ وتأمره بمالو امتثل أمرك فيه، لم يرتكب تلك الفعلة، وكل مايضرب فى طريقها ، ويتعلق بسببها ـ أشار له الزمخشرىّ ـ .

« إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أى فحقيق أن يُتَّقى ويُراقب .

تنبيه :

فى (الإكليل) : قال الكيا الهراسىّ: قيل نزلت فى قوم ذبحوا قبل النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح . وعموم الآية النهى عن التعجيل فى الأمر والنهى ، دونه . ويحتج بهذه الآية فى اتباع الشرع فى كل شىء. وربما احتج به نفاة القياس، وهو باطل منهم. ويحتج به فى تقديم النص على القياس . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ » أى: إذا نطق ونطقتم ، فلتكن أصواتكم قاصرة عن الحدّ الذى يبلغه صوته ، ليكون عالياً لكلامكم ، لا أن تغمروا صوته بلغطكم ، وتبلغوا أصواتكم إلى أسماع الحاضرين قبل صوته ، فإن ذلك من سوء الأدب بمكان كبير « وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ » أى بل تعمدوا فى مخاطبته القول اللين، القريب من الهمس، الذى يضادّ الجهر، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم . وروى عن مجاهد تفسيره بندائه باسمه ، أى لاتنادوه كما ينادى بعضكم بعضاً : يامحمد ! يامحمد ! بل يانبى الله ! يارسول الله! ونظر فيه شراح (الكشاف) بأن ذكر الجهر حينئذ

لا يظهر له وجه ، إذ الظاهر أن يقال : لا تجعلوا خطابه كخطاب بعضكم لبعض، كما مر فى قوله[1](لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا) انتهى .

ولك أن تقول : إنما أفرغ هذا المعنى المروىّ عن مجاهد فى قالب ذلك اللفظ الكريم جرياً على سنة التنزيل فى إيثار أرق الألفاظ والجمل، وألطفها فى ذلك ، فإن أسلوبه فوق كل أسلوب. وقد قالوا : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به « أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ » أى مخافة أن تحبط أعمالكم ، برفع صوتكم فوق صوته ، وجهركم له بالقول كجهركم لبعضكم « وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » أى لا تعلمون ولا تدرون بحبوطها .

تنبيه :

استدلت المعتزلة بالآية على أن الكبائر محبطة للأعمال ، لأن المذكور فى الآية كبيرة محبطة ولا فرق بينها وبين غيرها . ولما كان عند أهل السنة، المحبط للأعمال هو الكفر خاصة، تأولوا الآية بأنها للتغليظ والتخويف ، إذ جعلت بمنزلة الكفر المحبط ، أو هى للتعريض بالمنافقين المقاصدين بالجهر والرفع الاستهانة ، فإن فعلهم محبط قطعاً .

وقال الناصر : المراد فى الآية النهى عن رفع الصوت على الإطلاق . ومعلوم أن حكم النهى الحذر مما يتوقع فى ذلك من إيذاء النبىّ عليه الصلاة والسلام. والقاعدة المختارة أن إيذاءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق . فورد النهى عما هو مظنة لأذى النبىّ عليه الصلاة والسلام، سواء وجد هذا المعنى أوْ لا، حماية للذريعة، وحسماً للمادة. ثم لما كان هذا المنهىّ عنه ـ وهو رفع الصوت ـ منقسماً إلى مايبلغ ذلك المبلغ أولا، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر ، لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً ، وخوّف أن يقع فيما هو محبط للعمل ، وهو البالغ حد الإيذاء ، إذ لا دليل ظاهر يميزه . وإن كان ، فلا يتفق تمييزه فى كثير من الأحيان . وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الإشارة بقوله (أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) . وإلا فلو كان الأمر على ماتعتقده المعتزلة، لم يكن لقوله (وَأَنتُمْ

(١) [٢٤ / النور / ٦٣] .

لَا تَشْعُرُونَ) موقع . إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذياً ، فيكون كفراً محبطاً قطعاً ، وبين أن يكون غير مؤذ ، فيكون كبيرة محبطة على رأيهم قطعاً . فعلى كلا حاليه ، الإحباط به محقق ، إذن فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور ، مع أن الشعور ثابت مطلقاً ـ والله أعلم ـ .

ثم قال : وهذا التقرير الذى ذكرته يدور على مقدمتين ، كلتاهما صحيحة :

إحداهما ـ أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الإيذاء ، وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة الآن ، حتى إن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه . فكيف برتبة النبوة وما تستحقه من الإجلال والإعظام .

المقدمة الأخرى ـ أن إيذاء النبى ﷺ كفر . وهذا أمر ثابت قد نص عليه أئمتنا ـ يعنى المالكية ـ وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفراً ، ولا تقبل توبته ، فما أتاه أعظم عند الله وأكبر ، والله الموفق . انتهى .

ولا يخفى أن الإنصاف هو الوقوف مع ما أوضحه النص وأبانه ، فكل موضع نص فيه على الإحباط وجب قبوله بدون تأويل ، وامتنع القياس عليه ، لأنه مقام توعد وخسران ، ولا مجال للرأى فى مثل ذلك . هذا ما أعتقده وأراه . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ، لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ » أى يبالغون فى خفضها « عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ » قال ابن جرير[1] : أى اصطفاها وأخلصها للتقوى

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

يعنى لاتقائه بأداء طاعته ، واجتناب معاصيه ، كما يمتحن الذهب بالنار ، فيخلص جيدها ، ويبطل خبثها « لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ » أى ثواب جزيل ، وهو الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ » أى يدعونك « مِن وَرَآءِ » أى خارج « ٱلْحُجُرَٰتِ » أى عند كونك فيها ، استعجالًا لخروجك إليهم ، ولو بترك ما أنت فيه من الأشغال « أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » إذ لا يفعله محتشم ، ولا يفعل لمحتشم ، فلا يراعون حرمة أنفسهم ، ولا حرمتك ، ونسب إلى الأكثر ، لأنه قد يتبع عاقل جماعة الجهال ، موافقة لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ » أى لأن خروجه باستعجالهم ربما يغضبه ، فيفوتهم فوائد رؤيته وكلامه . وإن صبروا استفادوا فوائد كثيرة ، مع اتصافهم بالصبر ، ورعاية الحرمة لنبيهم وأنفسهم « وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى لمن تاب من معصية الله ، بندائك كذلك ، وراجع أمر الله فيه وفى غيره .

تنبيهات :

الأول ـ قال ابن كثير : قد ذكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمى ، فيما أورده غير واحد .

روى الإمام أحمد[1] عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن الأقرع بن حابس ؛ أنه نادى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ! يا محمد ! (وفى رواية : يا رسول الله !) فلم يجبه . فقال :

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٨٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى) .

يارسول الله ! إن حمدى لزين ، وإن ذمّى لشين ، فقال : ذاك الله عز وجل .

وروى ابن إسحاق ، فى ذكر سنة تسع ، وهى المسماة سنة الوفود ؛ أن رسول الله ﷺ لما افتتح مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه ، فكان منهم وفد بنى تميم . فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته : أن اخرج إلينا يا محمد ! فآذى ذلك رسولَ الله ﷺ من صياحهم ، فخرج إليهم . ثم ساق ابن إسحاق نبأهم مطولًا ثم قال: وفيهم نزل من القرآن (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) .

الثانى ـ (ٱلْحُجُرَٰتِ) بضمتين ، وبفتح الجيم ، وبسكونها . وقرئ بهنّ جميعاً : جمع (حجرة) . وهى الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوّط عليها . فُعْلَة بمعنى مفعولة ، كالغرفة والقبضة .

قال الزمخشرىّ : والمراد حجرات نساء رسول الله ﷺ . وكانت لكل واحدة منهن حجرة . ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرّقوا على الحجرات ، متطلبين له ، فناداه بعض من وراء هذه ، وبعض من وراء تلك . وأنهم قد أتوها حجرة حجرة ، فنادوه من ورائها . وأنهم نادوه من وراء الحجرة التى كان فيها . ولكنها جمعت إجلالًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولمكان حرمته . والفعل ـ وإن كان مسنداً إلى جميعهم ـ فإنه يجوز أن يتولّاه بعضهم ، وكان الباقون راضين ، فكأنهم تولوه جميعاً .

الثالث ـ قال الزمخشرىّ : ورود الآية على النمط الذى وردت عليه ، فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلاله .

منها ـ مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به ، بالسفه والجهل ، لما أقدموا عليه .

ومنها ـ لفظ (ٱلْحُجُرَٰتِ) وإيقاعها، كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه.

ومنها ـ المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذى تبين به ما استنكر عليهم .

ومنها ـ التعريف باللام دون الإضافة .

ومنها ـ أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم ، وقلة ضبطهم لمواضع التمييز فى المخاطبات ، تهويناً للخطب على رسول الله ﷺ ، وتسلية له ، وإماطة لما تداخله من إيحاش تعجرفهم ، وسوء أدبهم ، وهلم جرا . . . من أول السورة إلى آخر هذه الآية . فتأمل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التى تنتمى إلى الله ورسوله ، متقدمة على الأمور كلها ، من غير حصر ولا تقييد. ثم أردف ذلك النهى عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر ، كأن الأول بساط للثانى ، ووطاء لذكره . ثم ذكر ماهو ثناء على الذين تحاموا ذلك ، ففضوا أصواتهم ، دلالة على عظيم موقعه عند الله . ثم جىء على عقب ذلك بما هو أطم ، وهجنته أتم ، من الصياح برسول الله ﷺ ، فى حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر ، كما يصاح بأهون الناس قدراً ، لينبه على فظاعة ما أجروا إليه ، وجسروا عليه ، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول ، حتى خاطبه جِلَّة المهاجرين والأنصار بأخى السرار ، كان صنيع هؤلاء من المنكر الذى بلغ من التفاحش مبلغاً . ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب ، وتقتبس محاسن الآداب ، كما يحكى عن أبى عبيد ـ ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى ـ أنه قال : ما دققت باباً على عالم قط ، حتى يخرج فى وقت خووجه . انتهى .

الرابع ـ قال ابن كثير : قال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ ، كما كان يكره فى حياته ، لأنه محترم حيًّا ، وفى قبره ﷺ . وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع صوت رجلين فى مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم قد ارتفعت أصواتهما ، فحصبهما . ثم ناداهما فقال : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً . انتهى .

الخامس ـ روى البخارى[1] عن عبد الله بن الزبير أنه قدم ركب من بنى تميم على

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤٩ ـ سورة الحجرات ، ٢ ـ باب إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَاتِ ، حديث ١٩٤٢

النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : أَمِّر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : أمّر الأقرع ابن حابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافى ! فقال عمر : ما أردت خلافك ! فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما . فنزل فى ذلك (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ . . .) حتى انقضت الآية .

وفى رواية : فأنزل الله فى ذلك (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ . . .) الآية.

قال ابن الزبير : فما كان عمر يُسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى حتى يستفهمه . وقد انفرد بهاتين الروايتين البخارىّ دون مسلم .

قال الحافظ ابن حجر : وقد استُشكل ذلك ! قال ابن عطية : الصحيح أن سبب نزول هذه الآية كلام جفاة الأعراب .

قال ابن حجر : قلت : لا يعارض ذلك هذا الحديث ، فإن الذى يتعلق بقصة الشيخين فى تخالفهما فى التأمير هو أول السورة (لَا تُقَدِّمُواْ) ولكن لما اتصل بها قوله (لَا تَرْفَعُوٓاْ) تمسك عمر منها بخفض صوته . وجفاة الأعراب الذين نزلت فيهم هم من بنى تميم ، والذين يختص بهم ، وقوله (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ) . انتهى .

وتقدم لنا مراراً الجواب عن أمثاله، بأن قولهم: نزلت الآية فى كذا، قد يكون المراد به الاستشهاد على أن مثله مما تتناوله الآية ، لا أنه سبب لنزولها .

قال الإمام ابن تيمية: قولهم نزلت هذه الآية فى كذا، يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل فى الآية ، وإن لم يكن السبب . كما تقول : عنى بهذه الآية كذا . انتهى . وبه يجاب عما يرويه كثير من تعدد سبب النزول، فاحفظه، فإنه من المضنون به على غير أهله . ولو وقف عليه ابن عطية لما ضعف رواية البخارىّ، ولما تمحل ابن حجر لتفكيك الآيات بجعل بعضها لسبب . وبعضها لآخر ، فى قصة واحدة . وبالله التوفيق . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ »أى: فاستظهروا صدقه من كذبه ، بطريق آخر كراهة « أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ » أى قوماً برآء مما قذفوا به بغية أذيتهم بجهالة لاستحقاقهم إياها ، ثم يظهر لكم عدم استحقاقهم «فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ » أى فتندموا على إصابتكم إياهم بالجناية التى تصيبونهم بها، وحق المؤمن أن يحترز مما يخاف منه الندم فى العواقب .

تنبيهات :

الأول ـ قال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة ابن أبى معيط ، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بنى المصطلق. وقد روى ذلك من طرق. ومن أحسنها مارواه الإمام أحمد[١] فى مسنده من رواية مالك عن ابن المصطلق، وهو الحارث ابن ضرار والد جويرية أم المؤمنين رضى الله عنها . قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن سابق ، حدثنا عيسى بن دينار ، حدثنى أبى أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعىّ رضى الله عنه يقول : قدمت على رسول الله ﷺ ، فدعانى إلى الإسلام ، فدخلت فيه ، وأقررت به ، ودعانى إلى الزكاة ، فأقررت بها وقلت : يارسول الله ! أرجع إلى قومى فأدعوهم إلى الإســلام ، وأداء الزكاة ، فمن استجاب لى جمعت زكاته ، ويرسل إلىّ يارسول الله رسولاً إبّان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة . فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له ، وبلغ الإبّان الذى أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه ، احتبس عليه الرسول ، فلم يأته ، وظن الحارث أنه قد

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٢٧٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله ، فدعا بسروات قومه ، فقال لهم : إن رسول الله ﷺ كان وقّت لى وقتاً يرسل إلىّ رسوله ليقبض ما كان عندى من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة، فانطلقوا فنأتى رسول الله ﷺ . وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة. فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرِقَ ، فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله ! إن الحارث منعنى الزكاة ، وأراد قتلى. فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث. فأقبل الحارث بأصحابه، حتى إذا استقبل البعث، وفصل من المدينة، لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث! فلما غشيهم قال لهم : إلى من بُعثتم ؟ قالوا : إليك . قال : ولِمَ ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعته الزكاة ، وأردت قتله ! قال : لا ، والذى بعث محمدًا بالحق ، ما رأيته بتة ، ولا أتانى . فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : منعتَ الزكاة ، وأردت قتل رسولى ؟! قال : لا ، والذى بعثك بالحق ! ما رأيته بتة ، ولا أتانى ، وما أقبلت إلا حين احتبس علىّ رسولُ رسولِ الله ﷺ ! خشيت أن تكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله. قال: فنزلت الحجرات (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ . . . إلى قوله : حَكِيمٌ) .

وقال مجاهد وقتادة : أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق يتصدقهم ، فتلقوه بالصدقة ، فرجع فقال : إن بنى المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك (زاد قتادة : وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام) فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضى الله عنه إليهم ، وأمره أن يتثبّت ولا يعجل، فانطلق حتى أتاهم ليلًا، فبعث عيونه، فلما جاءوا أخبروا خالداً رضى الله عنه أنهم مستمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم . فلما أصبحوا أتاهم خالد رضى الله عنه، فرأى الذى يعجبه . فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فأنزل الله تعالى هـذه الآية . قال قتادة : فكان رسول الله ﷺ يقول : التثبُّت من الله ، والعجلة من الشيطان . وكذا ذكر غير واحد من السلف ، منهم ابن أبى ليلى ، ويزيد بن رومان ، والضحاك ، ومقاتل ،

وغيرهم فى هذه الآية ، أنها نزلت فى الوليد بن عقبة ـ والله أعلم ـ انتهى .

قال ابن قتيبة فى (المعارف) : الوليد بن عقبة بن أبى معيط بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس، وهو أخو عثمان لأمه ، أروى بنت كريز . أسلم يوم فتح مكة ، وبعثه رسول الله ﷺ مصدقاً إلى بنى المصطلق ، فأتاه فقال : منعونى الصدقة ! وكان كاذباً . فأنزل الله هذه الآية . وولّاه عمر على صدقات بنى تغلب ، وولّاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبى وقاص ، فصلى بأهلها صلاة الفجر ، وهو سكران ، أربعاً ، وقال : أزيدكم ؟! فشهدوا عليه بشرب الخمر عند عثمان ، فعزله وحدّه . ولم يزل بالمدينة حتى بويع علىّ ، فخرج إلى الرقّة فنزلها ، واعتزل عليًّا ومعاوية . ومات بناحية الرقّة .

الثانى ـ فى (الإكليل) : فى الآية ردّ خبر الفاسق ، واشتراط العدالة فى المخبر ، راوياً كان ، أو شاهداً ، أو مفتياً . ويستدل بالآية على قبول خبر الواحد العدل . قال ابن كثير : ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال ، لاحتمال فسقه فى نفس الأمر، وقبلها آخرون ، لأنا إنما أمرنا بالتثبّت عند خبر الفاسق ، وهـذا ليس بمحقق الفسق ، لأنه مجهول الحال .

الثالث ـ فى قوله تعالى (فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ) فائدتان :

إحداها ـ تقرير التحذير وتأكيده . ووجهه هو أنه تعالى لما قال (أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ) قال بعده : وليس ذلك مما لا يلتفت إليه ، ولا يجوز للعاقل أن يقول : هب أنى أصبت قوماً ، فماذا علىّ ؟ بل عليكم منه الهم الدائم ، والحزن المقيم . ومثل هذا الشىء واجب الاحتراز منه .

والثانية ـ مدح المؤمنين . أى لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها ، بل تصبحون نادمين عليها ـ أفاده الرازىّ ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ، لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ، أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ)

« وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ » قال ابن جرير[1] : يقول تعالى ذكره لأصحاب نبىّ الله ﷺ : واعلموا أيها المؤمنون بالله ورسوله أن فيكم رسول الله ، فاتقوا الله أن تقولوا الباطل ، وتفتروا الكذب ، فإن الله يخبره أخباركم ، ويعرفه أنباءكم ، ويقوّمه على الصواب فى أموره .

« لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ » قال الطبرىّ[1] : أى لو كان رسول الله ﷺ يعمل فى الأمور بآرائكم ، ويقبل منكم ما تقولون له ، فيطيعكم ، لنالكم عنتٌ ـ يعنى الشدة والمشقة ـ فى كثير من الأمور ، بطاعته إياكم ، لو أطاعكم ، لأنه كان يخطئ فى أفعاله ، كما لو قبل من الوليد بن عقبة قوله فى بنى المصطلق ، أنهم قد ارتدوا ومنعوا الصدقة ، وجمعوا الجموع لغزو المسلمين ، فغزاهم فقتل منهم ، وأصاب من دمائهم وأموالهم ، كان قد قتل وقتلتم من لا يحل له ولا لكم قتله ، وأخذتم من المال ما لا يحل له ولكم أخذه من أموال قوم مسلمين ، فنالكم من الله بذلك عنت . والعنت : المشقة أو الهلاك أو الإثم أو الفساد .

تنبيه :

(أَنَّ) بما فى حيزها سادة مسدَّ مفعولى (أُعْلَمُوٓاْ) باعتبار ماقيد به من الحال ، وهو قوله : « لَوْ يُطِيعُكُمْ .. » الخ ، فإنه حال من الضمير المجرور فى (فِيكُمْ) المستتر فيه . والمعنى : أنه فيكم كائناً على حالة يجب تغييرها ، أو كائنين على حالة كذلك ، وهى أنكم تودّون أن يتبعكم فى كثير

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

من الحوادث ، ولو فعل ذلك لوقعتم فى الجهل والهلاك . وفيه إيذان بأن بعضهم زين لرسول الله ﷺ أن يقع فى بنى المصطلق ، وأنه لم يطع رأيهم هـذا . ويجوز أن يكون (لَوْ يُطِيعُكُمْ) مستأنفاً . إلا أن الزمخشرىّ منع هذا الاحتمال، قال : لأدائه إلى تنافر النظم، لأنه لو اعتبر (لَوْ يُطِيعُكُمْ . . .) الخ كلاماً برأسه ، لم يأخذ الكلام بحجز بعض ، لأنه لا فائدة حينئذ فى قوله : (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ) إذا قطع عما بعده . وأجيب بجواز أن يقصد به التنبيه على جلالة محله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم لجهلهم بمكانه مفرّطون فيما يجب له من التعظيم ، وفى أن شأنهم أن يتبعوه ، ولا يتبعوا آراءهم ، حتى كأنهم جاهلون بأنه بين أظهرهم ، فوضح جواز الاستئناف، والوقف على (رَسُولَ اللَّهِ).

« وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ » أى فما أجدركم أن تطيعوا رسول الله وتأتمّوا به ، فيقيكم الله بذلك من العنت فيما لو استتبعتم رأى رسول الله لرأيكم « وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ » أى بالله « وَالْفُسُوقَ » يعنى الكذب « وَالْعِصْيَانَ » أى مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتضييع ما أمر الله به .

« أُولَئِكَ » أى الموصوفون بمحبة الإيمان ، وتزينه فى قلوبهم ، وكراهتهم المعاصى « هُمُ الرَّاشِدُونَ » أى السالكون طريق الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً » أى إحساناً منه ، ونعمة أنعمها عليكم . قال القاشانىّ : كان فضلًا بعنايته بهم فى الأزل ، المقتضية للهداية الروحانية الاستعدادية المستتبعة لهذه الكمالات فى الأبد . ونعمة بتوفيقه إياهم للعمل بمقتضى تلك الهداية الأصلية ، وإعانته بإفاضة الكمالات المناسبة لاستعداداتهم ، حتى اكتسبوا ملكة العصمة الموجبة لكراهة المعصية . وهو تعليل لـ (حبّب) و (كرّه) وما بينهما اعتراض ، أو نصب بفعل مضمر ، أى جرى ذلك فضلًا ، أو يبتغون فضلًا .

« وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى ذو علم بالمحسن والمسىء ، وحكمة فى تدبير خلقه ، وتصريفهم فيما شاء من قضائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ ، فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ، فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ)

« وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ » أى تقاتلوا « فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا » قال ابن جرير[1] : أى بالدعاء إلى حكم كتاب الله ، والرضا بما فيه ، لهما وعليهما ، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل .

« فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ » أى فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله ، له وعليه ، وتعدت ماجعل الله عدلًا بين خلقه ، وأجابت الأخرى منهما ، « فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى » أى تعتدى وتأبى الإجابة إلى حكم الله « حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ » أى ترجع إلى حكم الله الذى حكم فى كتابه بين خلقه « فَإِن فَآءَتْ » أى رجعت الباغية ، بعد قتالكم إياهم ، إلى الرضا بحكم الله فى كتابه « فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ » أى بالإنصاف بينهما ، وذلك حكم الله فى كتابه الذى جعله عدلًا بين خلقه « وَأَقْسِطُوٓاْ » أى اعدلوا فى كل ما تأتون وتذرون . « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ » أى فيجازيهم أحسن الجزاء .

تنبيهات :

الأول ـ قال القاشانىّ : الاقتتال لا يكون إلا للميل إلى الدنيا ، والركون إلى الهوى ، والانجذاب إلى الجهة السفلية ، والتوجه إلى المطالب الجزئية . والإصلاح إنما يكون من

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

لزوم العدالة فى النفس التى هى ظل المحبة، التى هى ظل الوحدة . فلذلك أمر المؤمنون الموحدون بالإصلاح بينهما ، على تقدير بغيهما . والقتال مع الباغية على تقدير بغى إحداهما ، حتى ترجع. لكون الباغية مضادة للحق ، دافعة له .

وقد روى أن هذه الآية نزلت فى طائفتين من الأوس والخزرج اقتتلتا فى بعض ما تنازعتا فيه بالنعال والأيدى ، لا بالسيوف ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فأتاهم فحجز بينهم وأصلح. روى ذلك من طريق عديدة ، مما يقوى أن القتال الذى نزلت فيه كان حقيقيًّا .

ويروى عن الحسن أن الاقتتال بمعنى الخصومة ، والقتال بمعنى الدفع مجازاً . قال ـ فيما رواه الطبرىّ [1] عنه ـ : كانت تكون الخصومة بين الحيين ، فيدعوهم إلى الحكم ، فيأبون أن يجيبوا ، فأنزل الله (وَإِن طَآئِفَتَانِ) إلى قوله (فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى ...) الآية . يقول: ادفعوا إلى الحكم ، فكان قتالهم الدفع . انتهى .

ولا يخفى أن المادة قد تحمل على حقيقتها ومجازها فتتسع لهما . وقد قال اللغويون : ليس كل قتال قتلًا . وقد يفضى الخصام إلى القتل ، فلا مانع أن يراد من الآية ما هو أعم ، لتكون الفائدة أشمل ـ والله أعلم ـ .

الثانى ـ فى (الإكليل) : فى الآية وجوب الصلح بين أهل العدل والبغى، وقتال البغاة وهو شامل لأهل مكة كغيرهم، وأن من رجع منهم وأدبر لا يقاتل ، لقوله (حَتَّىٰ تَفِىٓءَ) . انتهى.

وقد روى سعيد عن مروان قال : صرخ صارخ لعلىّ يوم الجمل : لا يقتل مدبر ولا يذفف على جريح ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن .

وقد اتفق الفقهاء على حرمة قتل مدبرهم وجريحهم ، وأنه لا يغنم لهم مال ، ولا تسبى لهم ذرية ، لأنهم لم يكفروا ببغيهم ولا قتالهم . وعصمة الأموال تابعة لدينهم ، ولذا يجب رد ذلك إليهم إن أخذ منهم . ولا يضمنوا ما أتلفوه حال الحرب من نفس أو مال . ومن قتل من أهل

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

البغى غسل وكفن وصلى عليه ، فإن قتل العادل كان شهيداً ، فلا يغسل ولا يصلى عليه ، لأنه قتل فى قتال أمره الله تعالى به ، كشهيد معركة الكفار .

وإن أظهر قوم رأى الخوارج . مثل تكفير من ارتكب كبيرة ، وترك الجماعة ، واستحلال دماء المسلمين وأموالهم ، ولم يجتمعوا لحرب ، لم يتعرّض لهم . وإن جنوا جناية وأتوا حدًّا ، أقامه عليهم .

وإن اقتتلت طائفتان لعصبية ، أو طلب رئاسة ، فهما ظالمتان . لأن كل واحدة منهما باغية على الأخرى ، وتضمن كل واحدة منهما ما أتلف على الأخرى .

هذه شذرة مما جاء فى (الإقناع) و (شرحه) وتفصيله ثمة .

الثالث ـ قال فى (شرح الإقناع) : فى الآية فوائد : منها أنهم لم يخرجوا بالبغى عن الإيمان . وأنه أوجب قتالهم . وأنه أسقط عنهم التبعة فيما أتلفوه فى قتالهم . وإجازة كل من منع حقًّا عليه . والأحاديث بذلك مشهورة : منها ما روى عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، فى المنشط والمكره ، وأن لا ننازع الأمر أهله (متفق عليه) (١) . وأجمع الصحابة على قتالهم ، فإن أبا بكر قاتل مانعى الزكاة ، وعليًّا قاتل أهل الجمل ، وأهل صفّين . انتهى .

وتدل الآية أيضا على وجوب معاونة من بغى عليه ، لقوله (فَقَٰتِلُواْ) ، وعلى وجوب تقديم النصح ، لقوله (فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا) ، وعلى السعى فى المصالحة ، وذلك ظاهر .

الرابع ـ وجه الجمع فى (ٱقْتَتَلُواْ) ، مع أنه قد يقال : مقتضى الظاهر (اقتتلتا) هو الحمل على المعنى دون اللفظ ، لأن الطائفتين فى معنى القوم والناس . والنكتة فى اعتبار المعنى أولا ،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٢ ـ كتاب الفتن ، ٢ ـ باب قول النبىّ صلى الله عليه وسلم (سترون بعدى أموراً تنكرونها) حديث رقم ٢٥٤٧ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ٤١ و ٤٢ (طبعتنا) .

واللفظ ثانياً عكس المشهور فى الاستعمال ، ما قيل إنهم أولًا فى حال القتال مختلطون مجتمعون، فلذا جمع أولًا ضميرهم ، وفى حال الإصلاح متميزون متفارقون ، فلذا ثنى الضمير ثانياً . وسرُّ قَرْنِ الإصلاح الثانى بالعدل، دون الأول، لأن الثانى لوقوعه بعد المقاتلة مظنة للتحامل عليهم بالإساءة ، أو لإيهام أنهم لما أحوجوهم للقتال استحقوا الحيف عليهم .

الخامس ـ (أقسط) الرباعىّ همزته للسلب . أى أزيلوا الجور ، واعدلوا . بخلاف (قسط) الثلاثىّ ، فمعناه جار . قال[1] تعالى : (وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) وهذا هو المشهور ـ خلافاً للزجاج ـ فى جعلهما سواء ـ أفاده الكرخىّ ـ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » استئناف مقرر لما قبله من الأمر بالإصلاح ، فإن من لوازم الإخوة أن يصطلحوا .

قال الشهاب: وتسمية المشاركة فى الإيمان أُخوّة تشبيه بليغ، أو استعارة. شبه المشاركة فيه بالمشاركة فى أصل التوالد ، لأن كلًّا منهما أصل للبقاء ، إذ التوالد منشأ الحياة، والإيمان منشأ البقاء الأبدىّ فى الجنان .

« فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » أى إذا اقتتلا بأن تحملوهما على حكم الله ، وحكم رسوله.

قال القاشانىّ : بيّن تعالى أن الإيمان الذى أقل مرتبته التوحيد والعمل ، يقتضى الأخوة الحقيقية بين المؤمنين ، للمناسبة الأصلية ، والقرابة الفطرية ، التى تزيد على القرابة الصورية ، والنسبة الولادية ، بما لا يقاس ، لاقتضائه المحبة القلبية ، لا المحبة النفسانية ، المسببة عن

(١) [٧٢ / الجن / ١٥] .

التناسب فى اللحمة . فلا أقل من الإصلاح الذى هو من لوازم العدالة ، وأحد خصالها ، إذ لو لم يعدوا عن الفطرة ، ولم يتكدروا بغواشى النشأة ، لم يتقاتلوا ، ولم يتخالفوا . فوجب على أهل الصفاء ، بمقتضى الرحمة والرأفة والشفقة اللازمة للأخوة الحقيقية ، الإصلاح بينهما ، وإعادتهما إلى الصفاء . انتهى .

تنبيه :

وضع الظاهر موضع المضمر مضافاً إلى المأمورين ، للمبالغة فى التقرير والتخصيص . وتخصيص الاثنين بالذكر دون الجمع ، لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان . فإذا لزمت المصالحة بين الأقل ، كانت بين الأكثر ألزم ، لأن الفساد فى شقاق الجمع ، أكثر منه فى شقاق الاثنين ـ أفاده القاضى والزمخشرىّ ـ .

وفى معنى الآية أحاديث كثيرة : كحديث[١] (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) . وحديث[٢] (والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه) . وحديث[٣] (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر). وحديث[٤] (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) وشبّك بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ـ وكلها فى الصحاح ـ .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤٦ ـ كتاب المظالم والغصب ، ٣ ـ باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يُسْلمه ، حديث ١٢٠٢ ، عن ابن عمر .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر ، حديث رقم ٣٨ (طبعتنا) عن أبى هريرة .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٢٧ ـ باب رحمة الناس والبهائم ، حديث ٢٣٢٢ ، عن النعمان بن بشير .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٨٨ ـ باب تشبيك الأصابع فى المسجد وغيره ، حديث رقم ٣١٩ ، عن أبى موسى .

« وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى خافوا مخالفة حكمه ، والإهمال فيه ، ليرحمكم فيفصح عن سالف آثامكم ، ويثيبكم رضوانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ » أى لا يهزأ رجال من رجال ، فيروا أنفسهم خيراً من المسخور منهم « عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ » أى الساخرات .

قال أبو السعود: فإن مناط الخيرية فى الفريقين، ليس مايظهر للناس من الصور والأشكال ولا الأوضاع والأطوار التى عليها يدور أمر السخرية غالباً . بل إنما هو الأمور الكامنة فى القلوب ، فلا يجترئ أحد على استحقار أحد، فلعله أجمع منه، لما نيط به من الخيرية عند الله تعالى ، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى ، والاستهانة بمن عظمه الله تعالى . ومن أهل التأويل من خص السخرية بما يقع من الغنىّ للفقير . وآخرون بما يعثر من أحد على زلة أو هفوة ، فيسخر به من أجلها .

قال الطبرىّ[1]: والصواب أن يقال إن الله عمّ ، بنهيه المؤمنين من أن يسخر بعضهم من بعض ، جميعَ معانى السخرية . فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن ، لا لفقره ، ولا لذنب ركبه ، ولا لغير ذلك .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقد عدّ الغزالىّ فى (الإحياء) السخرية من آفات اللسان ، وأوضح معناها بما لامطلب وراءه فننقله هنا تتميماً للفائدة ، قال رحمه الله .

الآفة الحادية عشرة ـ السخرية والاستهزاء : وهـذا محرم مهما كان مؤذياً ، كما قال تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ . . .) الآية . ومعنى السخرية: الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص، على وجه يُضحك منه . وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء . وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة .

وقالت عائشة رضى الله عنها : حاكيت ، فقال لى النبىّ صلى الله عليه وسلم: والله ما أحب أنى حاكيت إنساناً ، ولى كذا وكذا .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى[1] (يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا) إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة القهقهة بذلك .

وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب الكبائر .

وقال معاذ بن جبل : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : من عيّر أخاه بذنب قد تاب منه، لم يمت حتى يعمله .

وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير ، والضحك عليه ، والاستهانة به، والاستصغار له. وعليه نبه قوله تعالى (عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ) . أى لاتستحقره استصغاراً ، فلعله خير منك . وهذا إنما يحرم فى حق من يتأذى به . فأما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت السخرية فى حقه من جملة المزح . ومنه ما يذم وما يمدح . وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به، لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة ، كالضحك على حفظه

---

(١) [١٨ / الكهف / ٤٩] .

وعلى صنعته أو على صورته وخلقته ، إذا كان قصيراً أو ناقصاً ، لعيب من العيوب، فالضحك من جميع ذلك داخل فى السخرية المنهىّ عنها . انتهى .

لطيفة :

قال أبو السعود : القوم مختص بالرجال ، لأنهم القُوَّام على النساء (والأحسن المهمات) وهو فى الأصل إما جمع قائم كصَوْم وزَوْر فى جمع صائم وزائر . أو مصدر نعت به فشاع فى الجمع . وأما تعميمه للفريقين فى مثل قوم عاد وقوم فرعون ، فإما للتغليب، أولأنهن توابع. واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية فى المجامع . والتنكير إما للتعميم أو للقصد إلى نهى بعضهم عن سخرية بعض ، لما أنها مما يجرى بين بعض وبعض .

« وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ » أى لايعيب بعضكم على بعض ولا يطعن .

قال الشهاب : ضمير (تَلْمِزُوٓاْ) للجمع بتقدير مضاف فيه . و (أَنفُسَكُمْ) عبارة عن بعض آخر من جنس المخاطبين ، وهم المؤمنون ، فجعل ما هو من جنسهم بمنزلة أنفسهم ، كما فى قوله[1] (لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ) وقوله[2] (وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ) ، فأطلق الأنفس على الجنس استعارة . فى اللفظ الكريم تجوّز ، وتقدير مضاف . والنهى على هذا مخصوص بالمؤمنين ، وهو مغاير لما قبله ، وإن كان مخصوصاً بالمؤمنين أيضاً بحسب المفهوم ، لتغاير الطعن والسخرية ، فلا يقال إن الأول مغن عنه، إذ السخرية ذكره بما يكره على وجه مضحك بحضرته ، وهذا ذكره بما يكره مطلقاً . أو هو تعميم بعد التخصيص ، كما يعطف العام على الخاص ، لإفادة الشمول . وقيل : إنه من عطف العلة على المعلول ، أو اللمز مخصوص بما كان على وجه الخفية، كالإشارة . أوهو من عطف الخاص على العام لجعل الخاص كجنس آخر مبالغة . انتهى .

وقيل : معنى الآية : لا تفعلوا ماتلمزون به ، فإن من فعل ما استحق به اللمز ، فقد لمز نفسه .

---

(١) [٩ / التوبة / ١٢٨] . (٢) [٤ النساء / ٢٩] .

قال الشهاب : فـ (أَنفُسَكُمْ) على ظاهره والتجوّز فى قوله (تَلْمِزُوٓاْ) . فهو مجاز ذكر فيه المسبّب ، وأريد السبب . والمراد : لاترتكبوا أمرًا تعابون به . وضعف بأنه بعيد من السياق ، وغير مناسب لقوله (وَلَا تَنَابَزُواْ)، كما فى (الكشف)، وكونه من التجوّز فى الإسناد ، إذ أسند فيه ما للمسبب إلى السبب ، تكلف ظاهر . وكذا كونه كالتعليل للنهى السابق ، لا يدفع كونه مخالفاً للظاهر . وكذا كون المراد به لاتتسببوا فى الطعن فيكم ، بالطعن على غيركم ، كما فى الحديث [1] (من الكبائر أن يشتم الرجل والديه) ، إذ فُسِّر بأنه إذا شتم والدى غيره ، شتم الغيرُ والديه أيضاً .

« وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ » أى ولا تداعوا بالألقاب التى يكره النبزَ بها الملقب فقد روى أنه عنى بها قوم كانت لهم أسماء فى الجاهلية ، فلما أسلموا كانوا يغضبون من الدعاء بها رواه أحمد [2] وأبو داود . وفسره بعض السلف بقول الرجل للرجل : يافاسق ، يامنافق ! ، وبعض بتسمية الرجل بالكفر بعد الإسلام ، وبالفسوق بعد التوبة . والآية ـ كما قال ابن جرير [3] ـ : تشمل ذلك كله . قال : لأن التنابز بالألقاب هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة .

« بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ » قال الزمخشرىّ : (ٱلِٱسْمُ) ههنا بمعنى الذكر . من قولهم : طار اسمه فى الناس بالكرم أو باللؤم ، كما يقال : طار ثناؤه وصيته . وحقيقته ما سما ذكره ، وارتفع بين الناس . ألا ترى إلى قولهم : أشاد بذكره ؟ كأنه قيل بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائر ، أن يذكروا بالفسق . وفى قوله (بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ) ثلاثة أوجه :

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٤٦ (طبعتنا) عن عبد الله ابن عمرو بن العاص .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٦٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٣٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أحدها ـ استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذى يأباه الإيمان ويحظره، كما تقول : بئس الشأن بعد الكبرة ، الصبوةُ .

والثانى ـ أنه كان فى شتائمهم لمن أسلم من اليهود : يا يهوديّ ! يا فاسق ! فنهوا عنه ، وقيل لهم : بئس الذكر ، أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه . والجملة على هذا التفسير متعلقة بالنهى عن التنابز .

والثالث ـ أن يجعل من فسق غير مؤمن، كما تقول للمتحوّل عن التجارة إلى الفلاحة : بئست الحرفة ، الفلاحة بعد التجارة . انتهى .

واختار ابن جرير[1] الثالث ، لا ذهاباً لرأى المعتزلة من أن الفاسق غير مؤمن ، كما أنه غير كافر ، فهو فى منزلة بين المنزلتين ؛ بل لأن السياق يقتضى ختم الكلام بالوعيد ، فإن التلقيب بما يكرهه الناس أمر مذموم لا يجتمع مع الإيمان ، فإن شعار الجاهلية . وعبارته : يقول تعالى ذكره: ومن فعل ما نهيتنا عنه، وتقدم على معصيتنا بعد إيمانه، فسخر من المؤمنين، ولمز أخاه المؤمن ، ونبزه بالألقاب ، فهو فاسق (بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ) يقول: فلا تفعلوا فتستحقوا، إن فعلتموه ، أن تسموا فساقا، بئس الاسم الفسوق . وترك ذكر ماوصفنا من الكلام ، اكتفاء بدلالة قوله (بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ) عليه . ثم ضعف القول الثانى وقال[2] : وغير ذلك من التأويل أولى بالكلام، وذلك أن الله تقدم بالنهى عما تقدم النهى عنه فى أول هذه الآية ، فالذى هو أولى أن يختمها بالوعيد لمن تقدم على بغيه ، أو بقبيح ركوبه ما ركب مما نهى عنه ، لا أن يخبر عن قبح ما كان التائب أتاه قبل توبته ، إذ كانت الآية لم تفتتح بالخبر عن ركوبه ما كان ركب قبل التوبة من القبيح ، فيختم آخرها بالوعيد عليه ، أو بالقبيح . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية)

(٢) انظر الصفحة رقم ١٣٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

« وَمَن لَّمْ يَتُبْ » أى من نبزه أخاه بما نهى الله عن نبزه به من الألقاب ، أو لمزه إياه، أو سخريته منه « فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ » أى الذين ظلموا أنفسهم فأكسبوها العقاب بركوبهم ما نهوا عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ، إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ » أى كونوا على جانب منه . وذلك بأن تظنوا بالناس سوءا، فإن الظان غير محقق . وإبهام (الكثير) لإيجاب الاحتياط والتورع فيما يخالج الأفئدة من هواجسه، إذ لاداعية تدعو المؤمن للمشى وراءه ، أو صرف الذهن فيه، بل من مقتضى الإيمان ظن المؤمنين بأنفسهم الحسن . قال تعالى[1] (لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ) . نعم ! من أظهر فسقه ، وهتك ستره ، فقد أباح عرضه للناس . ومنه ما روى : من ألقى جلباب الحياء ، فلا غيبة له. ولذا قال الزمخشرى : والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة ، وسبب ظاهر ، كان حراماً واجب الاجتناب . وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة فى الظاهر ، فظنُّ الفساد والخيانة به محرم ، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطى الريَب ، والمجاهرة بالخبائث .

« إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ » وهو ظن المؤمن بالمؤمن الشر ، لا الخير « إِثْمٌ » أى مكسب للعقاب ، لأن فيه ارتكاب ما نهى عنه .

(١) [٢٤ / النور / ١٢] .

قال حجة الإسلام الغزالىّ فى (الإحياء) فى بيان تحريم الغيبة بالقلب : اعلم أن سوء الظن حرام ، مثل سوء القول . فكما يحرم عليك أن تحدّث غيرك بلسانك بمساوئ الغير، فليس لك أن تحدّث نفسك ، وتسىء الظن بأخيك . قال : ولست أعنى به إلا عقد القلب ، وحكمه على غيره بسوء الظن . فأما الخواطر وحديث النفس، فهو معفوّ عنه، بل الشك أيضا معفوّ عنه. ولكن المنهىّ عنه أن يظن. والظن عبارة عما تركن إليه النفس، ويميل إليه القلب. فقد قال تعالى« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ». قال : وسبب تحريمه أن أسرار القلوب ، لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل . فعند ذلك لا يمكنك أن لا تعتقد ما علمته وشاهدته . وما لم تشاهده بعينك ، ولم تسمعه بأذنك ، ثم وقع فى قلبك ، فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فينبغى أن تكذّبه فإنه أفسق الفساق . إلى أن قال : فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال ، وهو بعين مشاهدة ، أو بينة عادلة . انتهى .

ولما كان من ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن، ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس، ذكر سبحانه النهى عنه، إثر سوء الظن لذلك، فقال تعالى«وَلَا تَجَسَّسُواْ» قال ابن جرير[1] : أى لا يتبع بعضكم عورة بعض ، ولا يبحث عن سرائره ، يبتغى بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحمدوا أو ذموا ، لا على ما تعلمونه من سرائره .

يقال : تجسس الأمر إذا تطلبه ، وبحث عنه ، كتلمس . قال الشهاب : الجس (بالجيم) كاللمس ، فيه معنى الطلب، لأن من يطلب الشىء يمسه ويجسه ، فأريد به ما يلزمه. واستعمل التفعل للمبالغة فيه .

قال الغزالىّ : ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله. فيتوصل إلى الاطلاع، وهتك الستر ، حتى ينكشف له ما لو كان مستورًا عنه ، كان أسلم لقلبه ودينه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقد روى فى معنى الآية أحاديث كثيرة . منها حديث[١] أن النبى ﷺ خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق فى خدورهن ، فقال : يا معشر من آمن بلسانه، ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ! لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ، ولو فى جوف بيته .

وفى الصحيح[٢] عنه صلى الله عليه وسلم : لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً .

وروى أبو داود[٣] ؛ أن ابن مسعود رضى الله عنه أتى برجل ، فقيل له : هذا فلان ، تقطر لحيته خمرًا ! فقال : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به ـ والرجل سماه ابن أبى حاتم فى روايته : الوليد بن عقبة بن أبى معيط .

وروى أبو داود[٤] عن معاوية قال : سمعت النبىّ ﷺ يقول : إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم ، أو كدت أن تفسدهم فقال أبو الدرداء رضى الله عنه: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ، نفعه الله بها .

وروى الإمام أحمد[٥] عن دجين ، كاتب عقبة، قال : قلت لعقبة: إنا لنا جيراناً يشربون

(١) أخرجه الترمذىّ فى: ٢٥ـ كتاب البرّ والصلة، ٨٥ ـ باب ماجاء فى تعظيم المؤمن، عن ابن عمر .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٧ـ كتاب النكاح : ٤٥ـ باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع ، حديث رقم ٢١٢٥ ، عن أبى هريرة .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ـ كتاب الأدب ، ٣٧ ـ باب فى النهى عن التجسس ، حديث رقم ٤٨٩٠ .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٣٧ ـ باب فى النهى عن التجسس، حديث رقم ٤٨٨٨ .

(٥) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٤٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

الخمر ، وأنا داع لهم الشُّرَط فيأخذونهم ! قال : لا تفعل ، ولكن عظهم وتهددهم ! قال: ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إنى نهيتهم فلم ينتهوا ، وإنى داع لهم الشُّرَط فتأخذهم! فقال له عقبة : ويحك ! لا تفعل ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيى موؤودة من قبرها !

وروى أبو داود [1] عن أبى أمامة عن النبىّ ﷺ قال : إن الأمير إذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم .

قال الأوزاعىّ : ويدخل فى التجسس استماع قوم وهم له كارهون .

«وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا » أى لا يقل بعضكم فى بعض بظهر الغيب، ما يكره المقول فيه ذلك ، أن يقال له فى وجهه . يقال : غابه واغتابه ، كغاله واغتاله، إذا ذكره بسوء فى غيبته. « أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ » ؟ أى فلو عرض عليكم ، نفرت عنه نفوسكم ، وكرهتموه . فلذا ينبغى أن تكرهوا الغيبة . وفيه استعارة تمثيلية ، مثّل اغتياب الإنسان لآخر بأكل لحم الأخ ميتاً .

لطائف :

الأولى ـ قال الزمخشرىّ : (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ) الخ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه ، وفيه مبالغات شتى : منها ـ الاستفهام الذى معناه التقرير (وهو يفيد المبالغة من حيث أنه لا يقع إلا فى كلام مسلم عند كل سامع ، حقيقةً أو ادعاءً) ومنها ـ جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولًا بالمحبة . ومنها ـ إسناد الفعل إلى (أحدكم) والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك .

ومنها ـ أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ، حتى جعل الإنسان أخا.

ومنها ـ أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ ، حتى جعل ميتاً . انتهى .

(١) أخرجه فى : ٤٠ كتاب الأدب ، ٣٧ ـ باب فى النهى عن التجسس ، حديث حديث رقم ٤٨٨٩ .

وقال ابن الأثير فى (المثل السائر) فى بحث الكناية : فمن ذلك قوله تعالى (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ) الخ فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتاً ، ثم جعل ماهو الغاية من الكراهة موصولًا بالمحبة . فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له ، مطابقة للمعنى الذى وردت من أجله . فأما جعل الغيبة كأكل لحم الإنسان لحم إنسان آخر مثله ، فشديد المناسبة جداً ، لأن الغيبة إنما هى ذكر مثالب الناس ، وتمزيق أعراضهم . وتمزيقُ العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه ، لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة . وأما جعله كلحم الأخ فلما فى الغيبة من الكراهة ، لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها ، آمران بتركها ، والبعد عنها . ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ فى كراهته . ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر ، إلا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه . فهذا القول مبالغة فى استكراه الغيبة . وأما جعله ماهو فى الغاية من الكراهة موصولًا بالمحبة ، فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة ، والشهوة لها ، مع العلم بقبحها فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبهاً ، لأنك إذا نظرت إلى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع التى أشرنا إليها ، وجدتها مناسبة لما قصدت له . انتهى.

الثانية ـ الفاء فى قوله تعالى (فَكَرِهْتُمُوهُ) فصيحة فى جواب شرط مقدّر . والمعنى : إن صح ذلك ، أو عرض عليكم هذا ، فقد كرهتموه ، فما ذكر جواب للشرط ، وهو ماض فيقدر معه (قد) ليصح دخول الفاء على الجواب الماضى ، كما فى قوله تعالى[1] (فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ) وضمير (فَكَرِهْتُمُوهُ) للأكل ، وقد جوز كونه للاغتياب المفهوم منه . والمعنى : فاكرهوه كراهيتكم لذلك الأكل . وعبر عنه بالماضى للمبالغة ، فإذا أوّل بما ذكر يكون إنشائيًّا غير محتاج لتقدير (قد) ـ أفاده الشهاب ـ .

الثالثة ـ قال ابن الفرَس : يستدل بالآية على أنه لا يجوز للمضطر أكل ميتة الآدمىّ ،

(١) [٢٥ / الفرقان / ١٩] .

لأنه ضرب به المثل فى تحريم الغيبة، ولم يضرب بميتة سائر الحيوان. فدل على أنه فى التحريم فوقها . ومن أراد استيفاء مباحث الغيبة فعليه (بالإحياء) للغزالىّ ، فإنه جمع فأوعى .

« وَاتَّقُوا اللَّهَ » أى خافوا عقوبته بانتهائكم عما نهاكم عنه من ظن السوء والتجسس عما ستر والاغتياب وغير ذلك من المناهى. « إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ » أى يقبل توبة التائبين إليه ، ويتكرم برحمته عن عقوبتهم بعد متابهم .

ثم نبه تعالى، بعد نهيه عن الغيبة واحتقار الناس بعضهم لبعض، على تساويهم فى البشرية، كما قال ابن كثير ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ » أى من آدم وحواء . أو من ماء ذكر من الرجال ، وماء أنثى من النساء . أى : من أب وأم ، فما منكم أحد إلا وهو يدلى بمثل مايدلى به الآخر ، سواء بسواء ، فلا وجه للتفاخر والتفاضل فى النسب .

« وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » قال ابن جرير[1]: وجعلناكم متناسبين ، فبعضكم يناسب بعضاً نسباً بعيداً ، وبعضكم يناسب بعضاً نسباً قريباً . ليعرف بعضكم بعضاً فى قرب القرابة منه وبعده ، لا لفضيلة لكم فى ذلك ، وقربة تقربكم إلى الله ، بل كما قال تعالى « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » أى أشدكم اتقاء له وخشية بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، لا أعظمكم بيتاً ، ولا أكثركم عشيرة .

« إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » أى بظواهركم وبواطنكم ، وبالأتقى والأكرم ، وغير ذلك ، لا تخفى عليه خافية .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

تنبيهات :

الأول ـ حكى الثعالبيّ فى (فقه اللغة) فى تدريج القبيلة من الكثرة إلى القلة عن ابن الكلبيّ عن أبيه : أن الشَّعب (بفتح الشين) أكبر من القبيلة ، ثم القبيلة ، ثم العِمارة ، (بكسر العين) ثم البطن ، ثم الفخذ . وعن غيره : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم الفصيلة ، ثم العشيرة ، ثم الذرية ، ثم العترة ، ثم الأسرة . انتهى .

وقال الشيخ ابن برّى : الصحيح فى هـذا مارتبه الزبير بن بكار وهو : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة . قال أبو أسامة : هذه الطبقات على ترتيب خلق الإنسان ، فالشعب أعظمها ، مشتق من شعب الرأس ، ثم القبيلة من قبيلة الرأس لاجتماعها ، ثم العمارة وهى الصدر ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة وهى الساق . وزاد بعضهم العشيرة فقال :

اقصد الشَّعب فهو أكثر حيّ ... عدداً فى الحواء ثم القبيلهْ
ثم يتلوها العِمارة ثم الْـ ... ـبَطْنُ والفخذُ بعدها والفصيلهْ
ثم من بعدها العشيرة لكن ... هى فى جنب ما ذكرنا قليلهْ

فخزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصيّ بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة . وسميت (الشعوب) لأن القبائل تشعبت منها . و (الشعوب) جمع شعب ، بفتح الشين .

قال أبو عبيد البكريّ فى (شرح نوادر أبى على القالى) : كل الناس حكى الشعب فى القبيلة بالفتح ، وفى الجبل بالكسر ، إلا بندار فإنه رواه عن أبى عبيدة بالعكس . نقله الزبيديّ فى (تاج العروس) .

الثانى ـ فى الآية الاعتناء بالأنساب ، وأنها شرعت للتعارف ، وذم التفاخر بها ، وأن التقيّ غير النسيب ، يقدم على النسيب غير التقيّ ، فيقدم الأورع فى الإمامة على النسيب غيرهما .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن وهب قال: سألت مالكاً عن نكاح الموالى العربية فقال: حلال ، ثم تلا هذه الآية ، فلم يشترط فى الكفاءة الحرية ـ نقله فى (الإكليل) ـ .

وقال ابن كثير : استدل بالآية ، من ذهب إلى أن الكفاءة فى النكاح لاتشترط ، ولا يشترط سوى الدين .

الثالث أفاد قوله تعالى (لِتَعَارَفُوٓاْ) حصر حكمة جعلهم شعوباً وقبائل فيه . أى إنما جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً ، فتصلوا الأرحام ، وتبينوا الأنساب والتوارث ، لا للتفاخر بالآباء والقبائل .

قال الشهاب : الحصر مأخوذ من التخصيص بالذكر ، والسكوت فى معرض البيان .

وقال القاشانىّ : معنى قوله تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ) لا كرامة بالنسب ، لتساوى الكل فى البشرية المنتسبة إلى ذكر وأنثى. والامتياز بالشعوب والقبائل إنما يكون لأجل التعارف بالانتساب ، لا للتفاخر ، فإنه من الرذائل . والكرامة لاتكون إلا بالاجتناب عن الرذائل الذى هو أصل التقوى . ثم كلما كانت التقوى أزيد رتبة ، كان صاحبها أكرم عند الله، وأجل قدراً . فالمتقى عن المناهى الشرعية، التى هى الذنوب، فى عرف ظاهر الشرع ، أكرم من الفاجر ، وعن الرذائل الخلقية كالجهل والبخل والشره والحرص والجبن ، أكرم من المجتنب عن المعاصى الموصوف بها . انتهى .

الرابع ـ روى فى معنى الآية أحاديث كثيرة ، منها ما رواه البخارىّ[1] عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أىّ الناس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم . قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فعن معادن العرب تسألونى ؟ قالوا : نعم . قال : فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا .

(١) أخرجه فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء، ٨ ـ باب قول الله تعالى (وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا) ، حديث رقم ١٥٨٧ .

وروى مسلم[١] عنه أيضاً : قال رسول الله ﷺ : إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

وروى الإمام[٢] أحمد عن أبى ذر قال : إن النبىّ ﷺ قال له : انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود ، إلا أن تفضله بتقوى الله .

وروى البزار فى مسنده عن حذيفة عن النبىّ ﷺ : كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان .

وروى عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عمر ؛ أن النبىّ ﷺ قال فى خطبته يوم فتح مكة : أيها الناس ! إن الله تعالى قد أذهب عنكم عَيْبَةَ الجاهلية وتعظمها بآبائها . فالناس رجلان : رجل بَرٌّ تقىّ كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر يُتَّقَىٰ ، هين على الله تعالى. إن الله عز وجل يقول : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ . . .) الآية .

وبقيت أحاديث أخر ساقها ابن كثير ، فانظرها .

وروى الطبرىّ[٣] عن عطاء قال : قال ابن عباس: ثلاث آيات جحدهن الناس: الإذن كله وقال : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ) وقال الناس : أكرمكم أعظمكم بيتاً . قال عطاء : نسيت الثالثة .

ولما كانت طليعة السورة فى الحديث عن جفاة الأعراب، والإنكار على مساوئ أخلاقهم، ثم تأثرها من المناهى عن المنكرات التى تكثر فيهم ، ما كانوا فيها هم المقصود أولًا وبالذات، ثم غيرهم ثانياً وبالعرض ختمها بتعريف أن من كان على شاكلتهم فى ارتكاب تلك المناهى ، فهو ممن لم يخامر فؤاده الإيمان، ثم بيان مَن المؤمن حقًّا، ليفقهوا أن الأمر ليس كما يزعمون، فقال سبحانه وتعالى :

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب . حديث رقم ٣٤ (طبعتنا) عن أبى هريرة .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٥٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا، قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ، وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ » أى المحدث عنهم فى أول السورة « ءَامَنَّا » أى بالله ورسوله ، فنحن مؤمنون ، زعماً أن التلفظ بمادة الإيمان هو عنوان كل مكرمة وإحسان . « قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ » أى لستم مؤمنين ، وإن أخبرتم عنه، لأن الإيمان قول وعمل . « وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا» أى انقدنا ودخلنا فى السلم خوف السباء والقتل «وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ» أى لأنه لو حل الإيمان فى القلوب لتأثر منه البدن ، وظهر عليه مصداقه من الأعمال الصالحة، والبعد من ركوب المناهى ، فإن لكل حق حقيقة ، ولكل دعوى شاهد. فإن قيل : فى قوله (وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ) بعد قوله (قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ) شبه التكرار من غير استقلال بفائدة متجددة ؟ والجواب : إن فائدة قوله (لَّمْ تُؤْمِنُواْ) تكذيب دعواهم ، وقوله (وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ) توقيت لما أمروا به أن يقولوه ، كأنه قيل لهم : ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم ، لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير فى (قُولُوٓاْ) . وما فى (لَمَّا) من معنى التوقع ، دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ، فلا تكرار . هذا ما أشار له الزمخشرىّ ، واختار كون الجملة حالًا ، لا مستأنفة ، إخبارًا منه تعالى ، فإنه غير مفيد لما ذكر .

تنبيهات :

الأول ـ قال فى (الإكليل) : استدل بالآية من لم ير الإيمان والإسلام مترادفين ، بل بينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلق، لأن الإسلام الانقياد للعمل ظاهرًا ، والإيمان تصديق القلب كما قال (وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ) . انتهى .

وأهل الحجاز ـ لاته ليتاً ـ وحكى الأصمعىّ عن أم هشام السلولية أنها قالت : الحمد لله الذى لا يفات ولا يلات ولا تصمه الأصوات . وقرئ باللغتين (لَا يَلِتْكُمْ) و (لا يألتكم). ونحوه فى المعنى[1] (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) .

« إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى لمن أطاعه وتاب إليه من سالف ذنوبه ، فأنيبوا إليه أيها الأعراب ، وتوبوا من النفاق ، واعقدوا قلوبكم على الإيمان ، والعمل بمقتضياته ، يغفر لكم ويرحمكم .

ثم بين تعالى الإيمان ، وما به يكون المؤمن مؤمناً ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا » أى لم يقع فى نفوسهم شك فيما آمنوا به من وحدانية الله ونبوّة نبيه ، وألزموا نفوسهم طاعة الله ، وطاعة رسوله ، والعمل بما وجب عليهم من فرائض الله بغير شك فى وجوب ذلك عليهم . « وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى جاهدوا المشركين بإنفاق أموالهم ، وبذل مهجهم فى جهادهم ، على ما أمرهم الله به من جهادهم ، وذلك سبيله ، لتكون كلمة الله العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ـ قاله ابن جرير[2] : وقدّمنا مراراً أن قصر (سبيل الله) على غزو الكفار المعتدين ، من باب قصر العام على أهم أفراده وأعلاها ، وإلا فسبيل الله يعم العبادات والطاعات كلها ، لأنها فى سبيله وجهته .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

قال الشهاب: وقدم الأموال، لحرص الإنسان عليها، فإن ماله شقيق روحه. و(جاهدوا) بمعنى : بذلوا الجهد . أو مفعوله مقدر ، أى العدوّ أو النفس والهوى .

« أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ » أى الذين صدقوا فى ادّعاء الإيمان ، لظهور أثر الصدق على جوارحهم، وتصديق أفعالهم وأقوالهم. وفيه تعريض بكذب أولئك الأعراب فى ادعائهم الإيمان وإفادة للحصر . أى : هم الصادقون ، لا هؤلاء ، أو إيمانهم إيمان صدق وجد .

تنبيهات :

الأول ـ قال فى (الإكليل) : فى الآية دليل على أن الأعمال من الإيمان . وقدمنا أن هذا ما لا خلاف فيه بين السلف ، وليراجع فى ذلك ما بسطه ابن حزم رحمه الله فى (الفِصَل).

الثانى ـ قال القاشانىّ: فى قوله تعالى (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ..) الآية إشارة إلى الإيمان المعتبر الحقيقىّ، وهو اليقين الثابت فى القلب المستقر الذى لا ارتياب معه ، لا الذى يكون على سبيل الخطرات ، فالمؤمنون هم الموقنون الذين غلبت ملكة اليقين قلوبهم على نفوسهم ، ونورتها بأنوارها ، فتأصلت فيها ملكة القلوب حتى تأثرت بها الجوارح، فلم يمكنها إلا الجرى بحكمها، والتسخر لهيأتها ، وذلك معنى قوله (وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ) بعد نفى الارتياب عنهم ، لأن بذل المال والنفس فى طريق الحق هو مقتضى اليقين الراسخ، وأثره فى الظاهر . انتهى .

الثالث ـ قال فى (الكشاف) : فإن قلت : ما معنى (ثم) ههنا ، وهى للتراخى . وعدمُ الارتياب يجب أن يكون مقارناً للإيمان ، لأنه وصف فيه ، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التى حقيقتها التيقن وانتفاء الريب ؟ قلت : الجواب على طريقين :

أحدهما ـ أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان ، أو بعض المضلين ، بعد ثلج الصدر ، فشكّكه وقذف فى قلبه ما يثلم يقينه . أو نظر هو نظراً غير سديد يسقط به على الشك ، ثم يستمر على ذلك ، راكباً رأسه ، لا يطلب له مخرجاً . فوصف المؤمنون حقًّا بالبعد عن هذه الموبقات . ونظيره قوله (ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟) .

والثانى ـ أن الإيقان وزوال الريب ، لما كان ملاك الإيمان ، أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان ، تنبيهاً على مكانه . وعطف على الإيمان بكلمة التراخى ، إشعارًا باستقراره فى الأزمنة المتراخية المتطاولة غضًّا جديدًا . انتهى .

يعنى : أنه إما لنفى الشك عنهم فيما بعد ، فدل على أنهم كما لم يرتابوا أولًا لم تحدث لهم ريبة ، فالتراخى زمانى لا رتبى على ما مرّ فى قوله : (ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟) . أو عطفه عليه عطف جبريل على الملائكة ، تنبيهاً على أصالته فى الإيمان ، حتى كأنه شىء آخر . فثم دلالة على استمراره قديماً وحديثاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)

« قُلْ » أى لهؤلاء الأعراب القائلين بأفواههم (ءَامَنَّا) . « أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ » أى أتخبرونه بقولكم (ءَامَنَّا) ، بطاعتكم إياه لتكونوا مع المؤمنين عنده ، ولا تبالون بعلمه بما أنتم عليه ، من التعليم ، بمعنى الإعلام والإخبار ، فلذا تعدى للثانى بالباء . وقيل : تعدى بها لتضمين معنى الإحاطة أو الشعور . وفيه تجهيل لهم وتوبيخ . أى لأن قولهم (ءَامَنَّا) إن كان إخبارًا للخلق فلا دليل على صدقه ، وإن كان للحق تعالى فلا معنى له ، لأنهم كيف يعلمونه ، وهو العالم بكل شىء ، كما قال « وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » قال ابن جرير[1] : هذا تقدم من الله إلى هؤلاء الأعراب بالنهى عن أن يكذبوا ويقولوا غير الذى هم عليه فى دينهم . يقول : الله محيط بكل شىء عالم به ، فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائركم ، فيناله كم عقوبته ، فإنه لا يخفى عليه شىء .

ثم أشار إلى نوع آخر من جفائهم ، مختوماً بتوعدهم ، بقوله تعالى :

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ، قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَـٰمَكُم ، بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ)

« يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ » أى انقادوا وكثّروا سواد أتباعك . « قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَـٰمَكُم » أى بإسلامكم ، إذ لا ثمرة منه إلىّ[1] (مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ) « بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ » أى فى قولكم (ءَامَنَّا) لكن علم الله من قلوبكم أنكم كاذبون ، لاطلاعه على الغيوب ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ » قال ابن جرير[2] يقول تعالى ذكره : إن الله أيها الأعراب لا يخفى عليه الصادق منكم من الكاذب ، ومن الداخل منكم فى ملة الإسلام رغبة فيه ، ومن الداخل فيه رهبة من الرسول وجنده ، فلا تعلّمونا دينكم وضمائر صدوركم ، فإن الله لا يخفى عليه شىء فى خبايا السموات والأرض.

تنبيهات :

الأول ـ روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ! أسلمنا وقاتلتك العرب ، ولم نقاتلك . فقال رسول الله ﷺ : إن فقههم قليل ، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم ـ ونزلت هذه الآية ـ .

وقال ابن زيد : هـذه الآيات نزلت فى الأعراب . ولا يبعد أن يكون المحدث عنهم

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

فى آخر السورة من جفاة الأعراب ، غير المعنيّين أولَها ، وإنما ضموا إليهم لاشتراكهم معهم فى غلظة القول وخشونته . ويحتمل أن يكون النبأ لقبيلة واحدة ـ والله أعلم ـ .

الثانى ـ فى قوله تعالى (بَلِ ٱللَّـهُ يَمُنُّ عَلَيْـكُمْ ...) الآية ، ملاحظة المنة لله ، والفضل فى الهداية ، والقيام بواجب شكرها ، والاعتراف بها ، كما قال النبىّ ﷺ للأنصار يوم حنين[1] : يا معشر الأنصـــار ! ألم أجدكم ضلّالًا فهداكم الله بى ، وكنتم متفرّقين فألّفكم الله بى . وكنتم عالة فأغناكم الله بى ؟ ـ كلما قال شيئاً ، قالوا : الله ورسوله أمنّ .

وما ألطف قول أبى إسحاق الصابى فى طليعة كتاب له ، بعد الثناء على الله تعالى :

وبعث إليهم رسلًا منهم يهدونهم إلى الصراط المستقيم ، والفوز العظيم ، ويعدلون بهم عن المسلك الذميم ، والمورد الوخيم ، فكان آخرهم فى الدنيا عصرًا ، وأولهم يوم الدين ذكرًا ، وأرجحهم عند الله ميزاناً ، وأوضحهم حجة وبرهاناً ، وأبعدهم فى الفضل غاية ، وأبهرهم معجزة وآية ، محمد صلى الله عليه وسلم تسليما ، الذى اتخذه صفيًّا وحبيباً ، وأرسله إلى عباده بشيرًا ونذيرًا ، على حين ذهابٍ منهم مع الشيطان ، وصدوف عن الرحمن ، وتقطيع للأرحام ، وسفك للدماء الحرام ، واقتراف للجرائم ، واستحلال للمآثم . أنوفهم فى المعاصى حمية ، ونفوسهم فى غير ذات الله أبية ، يدعون معه الشركاء ، ويضيفون إليه الأكفاء ، ويعبدون من دونه ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئاً . فلم يزل ﷺ يقذف فى أسماعهم فضائل الإيمان ، ويقرأ على قلوبهم قوارع القرآن ، ويدعوهم إلى عبادة الله باللطف لمّا كان وحيدًا ، وبالعنف لمّا وجد أنصارًا وجنودًا . لا يرى للكفر أثرًا إلا طمسه ومحاه ، ولا رسماً إلا أزاله وعفّاه ، ولا حجة مموّهة إلا كشفها ودحضها ، ولا دعامة مرفوعة إلا حطها ووضعها ، حتى ضرب الحق بجرانه ، وصدع ببيانه ، وسطع بمصباحه ، ونصع بأوضاحه ، واستنبط الله هذه الأمة من حضيض النار ، وعلّاها إلى ذروة الصلحاء والأبرار ، واتصل حبلها بعد البتات ،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٥٦ ـ باب غزوة الطائف ، حديث رقم ١٩٣١ ، عن عبد الله بن زيد بن عاصم .

والتأم شملها بعد الشتات ، واجتمعت بعد الفرقة ، وتوادعت بعد الفتنة ، فصلى الله عليه صلاة زاكية نامية ، رائحة غادية ، منجزة عدته ، رافعة درجته .

الثالث ـ قال الرازىّ : هـذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق . وهى إما مع الله تعالى ، أو مع الرسول ﷺ ، أو مع غيرهما من أبناء الجنس . وهم على صنفين : لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين ، وداخلين فى رتبة الطاعة ، أو خارجاً عنها ، وهو الفاسق . والداخل فى طائفتهم ، السالك لطريقتهم ، إما أن يكون حاضراً عندهم ، أو غائباً عنهم ، فهذه خمسة أقسام :

أحدها ـ يتعلق بجانب الله .

وثانيها ـ بجانب الرسول .

وثالثها ـ بجانب الفساق .

ورابعها ـ بالمؤمن الحاضر .

وخامسها ـ بالمؤمن الغائب .

فذكر الله تعالى فى هذه السورة خمس مرات (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) ، وأرشد فى كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة .

فقال أولاً (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ) ، وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله ، لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله .

وقال ثانياً (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ) لبيان وجوب احترام النبىّ ﷺ .

وقال ثالثاً (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ) لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم ، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم ، وبيّن ذلك عند تفسير قوله (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟) .

وقال رابعاً (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ) وقال (وَلَا تَنَابَزُواْ) لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين فى حضورهم ، والإزراء بحالهم ومنصبهم .

وقال خامساً (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ) وقال (وَلَا تَجَسَّسُواْ) وقال (وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا) لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته ، وذكر ما لو كان حاضرًا لتأذى . وهو فى غاية الحسن من الترتيب .

فإن قيل : لِمَ لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة . الابتداء بالله ورسوله ثم بالمؤمن الحاضر ثم بالمؤمن الغائب ثم الفاسق ؟

نقول : قدم الله ما هو الأهم على ما دونه ، فذكر جانب الله ، ثم جانب الرسول ، ثم ذكر ما يفضى إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق ، والاعتماد عليه ، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفارًا للصدور . وأما المؤمن الحاضر أو الغائب فلا يؤذى المؤمن إلى حدٍّ يفضى إلى القتال . ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقيب نبإ الفاسق ، آية الاقتتال فقال (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ) ؟ انتهى .